اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 17-12-2009 رقم العـدد: 3366 رقم الصفحة: 14 مسلسـل: 99 رقم القصاصة: 1

أين المُعزّون؟!

لم تكن كارثة جدة الأولى التي تشهد ببرود التعاطف مع المملكة في ما تواجهه من مشكلات فقد كان اعتداء عصابة المتسللين على حدودنا الجنوبية امتحانا آخر لهذه المفاهيم

حمزة قبلان المزيني

أكاديمي وكاتب سعودي

hmozainy@alwatan.com.sa

اسم المصدر: الوطن السعودية

التاريـــخ: 17-12-2009 رقم العـدد: 3366 رقم الصفحة: 14 مسلسـل: 99 رقم القصاصة: 2

كانت كارثة السيول التي اجتاحت جدة امتحانا لنا في جوانب كثيرة. فقد كانت امتحانا لقدراتنا على التخطيط بعيد المدى لمدننا، وامتحانا لمستوى المراقبة والمحاسبة، وامتحانا لمستوى التضامن الوطني الرائع تجاه مدينة لها منزلة خاصة في الضمير الشعبي العام.

لكن هذه الكارثة كانت امتحانا عسيرا لبعض المفاهيم التي كانت جزءا من خطابنا السائد، وهي التي رفعها خطاب "الصحوة" إلى مستوى المسلّمات والعقائد. ومن أهمها مفاهيم "الأخوّة الإسلامية" و"الوحدة الإسلامية"، وغيرهما من المفاهيم "الأممية".

وكان أهم ما كشفتْه هذه الكارثة أن هذه المفاهيم "الأممية" لم تصمد للامتحان. والدليل الأوضح على ذلك أنه لم يقدِّم زعيم عربي واحد، أو زعيم مسلم واحد، أو منظمة عربية واحدة، أو منظمة إسلامية واحدة، أو جماعة إسلامية واحدة ما كان حقا للمملكة أن تتلقاه من واجب العزاء والتعاطف. لقد تتبعت وسائل الإعلام السعودية كلها فلم أجد أثرا لمثل هذا العزاء أو التعاطف مع المملكة في هذه الملمة الفاجعة. وربما فاتني بعض من ذلك؛ لكنه حتى إن وجد شيء منه فهو خافت جدا.

ويتضاد هذا الغياب المستنكَر للعزاء والتعاطف مع المواقف المبدئية للمملكة التي تتمثل في مبادرة قيادتها إلى إرسال برقيات التعازي والتعاطف مع الدول العربية والإسلامية التي تتعرض للكوارث مهما كان حجمها. ويشهد سجلّ المملكة بمبادرتها قبل غيرها لمساعدة الدول الإسلامية المنكوبة بإرسال المعونات العينية والنقدية التي تسمى دائما بـ"جسر المعونة السعودية" التي تحملها الطائرات السعودية تباعا بكميات ضخمة.

ومن المؤكد أن المملكة ليست بحاجة إلى المعونات المادية للتعامل مع كارثة سيول جدة؛ فقد أغناها الله تعالى بالموارد الكافية للتعامل مع الدمار الذي خلفته، وهو ما بدأ به خادم الحرمين الشريفين مباشرة بعد حدوث الكارثة.

ومن المؤكد كذلك أن غياب التعازي والتعاطف لا ينقص من قدر المملكة شيئا؛ لكن مما يُستنكر على الدول الإسلامية والعربية والمنظمات العربية والإسلامية ألا تبدي مشاعرها تجاه وقع الكارثة على المملكة، أو ألا تعبر عن تلك المشاعر علانية.

ويجب أن أبادر فأُبيِّن هنا أنني لست من دعاة انكفاء المملكة على نفسها، ولست من الدعاة إلى أن تنزل المملكة إلى مستوى أولئك الذين لم يقدموا تعازيهم لها ولم يبدوا تعاطفهم معها، ولا أدعو إلى أن تكف المملكة عن إرسال المعونات إلى المنكوبين في العالم كله والتعاطف معهم.

أما ما أريد أن أبيِّنه فهو الإشارة إلى ما كنت عرضت له في مقالات سابقة من أننا لا زلنا أسرى لبعض المفاهيم "الأممية" التي تفرض علينا اتخاذ مواقف ليست في صالحنا ولا صالح بلادنا، وهي مواقف لا يلتزم بها الآخرون إلا إذا كانت في صالحهم. وكثيرا ما استغلت هذه المفاهيم لتجنيد أبنائنا في معارك الآخرين، وهو ما يؤول دائما إلى رجوعهم إلينا ليوجهوا أسلحتهم إلى صدورنا تنفيذا لمطامع الآخرين.

ومن تلك المفاهيم الكبرى التي أشرت إليها مفهوم "الأمة الإسلامية". وكنت أشرت إلى أن هذا المفهوم تحول في المئة السنة الماضية إلى مفهوم مجرد ليس له صلة بالواقع. ذلك أن "العالم الإسلامي" ينقسم منذ مئة سنة تقريبا إلى دول مستقلة لكل منها علاقاتها مع دول العالم الأخرى. وربما تعارضت علاقاتها مع العالم مع علاقاتها بالدول الإسلامية الأخرى. وأصبحت كل دولة تهتم بمواطنيها في داخل حدودها المعترف بها بموجب ميثاق الأمم المتحدة.

ونظرا للأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية السيئة لأكثر الدول الإسلامية فقد اضمحل اهتمامها بالمسلمين الآخرين خارج حدودها، ولم تعد تعير اهتماما كبيرا للمفاهيم المجردة تحت ضغط ذلك الواقع الذي يشغلها عن رفاه التفكير في المجردات.

ولم تكن كارثة جدة الأولى التي تشهد ببرود التعاطف مع المملكة، أو غيابه، في ما تواجهه من مشكلات. فقد كان اعتداء عصابة المتسللين من الحوثيين على حدودنا الجنوبية امتحانا آخر لهذه المفاهيم التجريدية. إذ كانت مواقف الدول العربية والإسلامية ضعيفة في تأييد حق المملكة في الدفاع عن أراضيها وكسر شوكة المعتدين عليها. ولم تبادر المنظمات العربية، ومنها الجامعة العربية، إلى إعلان مواقف قوية ضد انتهاك حدود المملكة الدولية.

أما "الجماعات الإسلامية" فتفاوتت مواقفها بحسب أولوياتها. فقد كان موقف "الإخوان المسلمون" في مصر مائعا، إذ ساوى بين المعتدي والمعتدى عليه؛ بل أوحى باستنكاره أن تدفع المملكة العدوان على حدودها. أما جماعة "الإخوان المسلمون" السورية، فكان موقفها نابعا من أولوياتها التي تشبه الدائرة المفرغة، ومن ذلك عداؤها للنظام السوري الذي يتمتع بعلاقات جيدة مع النظام الإيراني الذي يُتهم بتأييد عصابة الحوثيين. فموقفها إذن ليس مبدئيا بقدر ما كان نكاية بالنظام السوري الذي تعاديه.

ومن أهم العبر التي يجب أن نأخذها من هذه المواقف أن نعي أن الحدود الدولية التي تحد الدول الإسلامية نتج عنها أن تشعر كل واحدة منها بأنها كيان مستقل بنفسه، وهو ما يؤثر على سلّم أولوياتها. بل إن كثيرا من هذه الدول ترى أن المفاهيم "الأممية" تمثل خطرا عليها لأنها تستغل دائما للتشكيك في وضعها القانوني الناشئ عن ميثاق الأمم المتحدة. وينبع هذا التشكيك من عداء بعض "الجماعات الإسلامية" لمشروعية الاحتكام إلى ميثاق الأمم المتحدة احتجاجا بأنه قانون وضعي غير إسلامي.

ومن العبر الأخرى التي يجب أن نعيها أن هذه المفاهيم "الأممية" تمثل خطرا على هذه الكيانات المستقلة من وجه آخر مهم. ذلك هو أن بعض الدول الإسلامية القوية التي لها طموحات سياسية أو مذهبية تتجاوز حدودها تستخدم هذه المفاهيم في محاولة إقناع المسلمين بأنها تمثل الإسلام الصحيح، وأنها وصية على مقدرات الأمة، وأنها هي المرشحة لصد عدوان الدول الأجنبية الطامعة في البلاد الإسلامية.

وختام القول إن كارثة سيول جدة الأليمة ربما كانت فرصة لأن نتنبه إلى كثير من الأمور التي كنا نمر بها غير واعين بها. فقد فتحت أعيننا على أوجه كثيرة من القصور في أداء بعض الأجهزة الحكومية، وعلى ضرورة المراقبة والمحاسبة الشعبية لها. لكنها فتحت أعيننا كذلك على أننا كنا ضحايا غير واعين لبعض المفاهيم الموهمة التي لا نصيب لها من الواقع.